

الفصل الثالث



في شهر كانون الثاني من عام 1997م، وحين كنت في سنّ التاسعة، تعرّضت عائلتنا لخسارة مفاجئة ومأساوية.

فبينما كان العمّ جون يعتني بحقول التبغ ظهيرة أحد الأيام برفقة والدي، انهار هناك. كان مريضاً منذ شهور عدّة، لكنّه رفض

مراجعة الطبيب. أخذه والدي في ذلك اليوم إلى عيادة قريبة من المركز التجاري، واكتشف أنّه يعاني السل، وأنّ عليه الذهاب حالاً إلى مستشفى كاسونغو. كانت شاحنة العمّ جون متعطلة حينها. لذا أسرع والدي لاستعارة سيارة من أحد أصدقائه. وقبل أن يغادر، وضع فرشاة شقيقه في ظل شجرة أكاسيا؛ كي يستريح. وبقيت زوجة العمّ إينيفا إلى جانب زوجها لمؤانسته، وسرعان ما انضم إليهما كثير من القرويين.

بعد مغادرة والدي بوقت قصير، سمعت ضجة صاخبة آتية من تحت الشجرة، تبعها شعور بالرعب. كانت إينيفا أول مَنْ صرخ. نظرت، فرأيتها تشق طريقها عبر الحشد، وتحاول التقاط أنفاسها. بدأ الآخرون الموجودون تحت الشجرة بالعويل والنواح، رافعين أيديهم نحو السماء. شعرت بعدها بيد على كتفي. نظرت إلى أعلى، فوجدت والدي، وقد بدا على مَحْيَاها الانزعاج كأنّها تناولت شيئاً مُرّاً.

قالت: لقد مات عمك جون.

عندئذٍ، عاد والدي بالسيارة وعلم، بالخبر الحزين المتعلق بشقيقه، فانهار لدرجة أن الأمر تطلّب تدخّل بعض الرجال؛ لسنده.

كانت تلك أول مرة أ شاهد فيها والديّ يعانيان بتلك الطريقة؛ منظر أخافني أكثر من أيّ أنواع السحر. لقد مات عمّي جون، وكانت جثته مسجاة تحت شجرة الأكاسيا. لم يسبق لي حينها أن رأيت ميتاً، لكنني خفت أن ألقى نظرة؛ خشية ألا يفارق المنظر مخيلتي. وما هي إلا لحظات حتى رأيت جيفري يظهر من بين الحشد. كان يبكي ويمشي حول نفسه كمَنْ ضيّع اتجاهه. لم أدري ما كان ينبغي لي فعله أو قوله لجيفري. ثمّ ورد في روعي أن أخذ ابن عمّي، وأبتعد به عن المكان في اتجاه الدامبو؛ لكي نلعب، وأتمكّن من التفكير. لم يرق لي هذا الشعور الذي راودني فجأة؛ فقد جرت العادة في ثقافتنا إظهار الحزن واللوعة على وفاة الأشخاص الأعزاء بالعويل والنواح. لكنني لم أشعر بأنني مستعد لفعل لذلك، ولم أعرف السبب. وبعد لحظات، بدأت أشعر بالخجل، بعدما شاهدت ما يفعله الجميع، ولاسيّما والدي الذي احمرّت عيناه، وانتفخ وجهه من شدة البكاء. جلست وحيداً، وأرغمت نفسي على البكاء، منعماً النظر على عمّي المتوفى، حتى أحسست بالدموع تنهمر حارّة على وجهي. ثمّ انضمت إلى ابن عمّي لتقديم التعازي قبل أن تجف.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، وصل شقيقا والدي موسايوالي وسقراط من كاسونغو، إضافة إلى بعض أفراد العائلة والأصدقاء الذين سمعوا النبأ. وصل أيضاً أعضاء من الكنيسة إلى بيت عمّي، وبقوا هناك طوال الليل واليوم الذي يليه. لقد حشروا أنفسهم داخل الغرفتين، ثمّ بدؤوا الغناء: «هذا العالم ليس مستقري»، في حين تدافع آخرون دخولاً وخروجاً لتقديم التعازي. كانت جثة عمّي جون مسجاة على فراش عشبي مغطى بقماش زاهٍ يدعى تشيتينجي. وفي صباح اليوم اللاحق، وصل تابوت خشبي بسيط من كاسونغو، ثمّ وُضعت الجثة داخله بلطف، لكنني لم أمتلك الشجاعة الكافية لدخول البيت.

يُعَدّ شهر كانون الثاني جزءاً من موسم المطر، حيث الهواء رطب وحارّ. وقد أصبح البيت مزدحماً ودبقاً ذلك الصباح من كثرة توافد الناس، وأصبح صوت عويلهم لا يطاق بالنسبة إلى جيفري. وفي لحظة ما، خرج، وقد بدا مشوّشاً أكثر من قبل، ومشى حيث كنت أجلس، قائلاً: وماذا الآن يا ابن العم؟ ما الذي سيحدث؟

قلت: لا أعرف. ما الذي يسعني قوله في موقف مثل هذا؟

وفي نهاية اليوم، دخل جيفري البيت، ليلقي نظرة على جثمان والده، ثم خرج مواصلاً البكاء. وقد استمر بفعل ذلك حتى حان وقت طقوس الجنازة.

كان الزعيم ويمبي خارج البلدة. لذا، فقد حضر مراسله وحارسه الشخصي السيد نغواتا إلى البيت برفقة عدد من وجهاء القرية. جلسوا جميعاً تحت شجرة الأكاسيا ساعات عدة يناقشون أموراً تتعلق بالجنازة، وما سيحدث لعائلة المتوفى. هناك عمل كثير جداً يتعيّن القيام به عند وفاة رجل مهم؛ وفي حال وجود خلاف على الميراث أو نقل الملكية، فإنّ الزعيم يتدخل للفصل في ذلك.

أخيراً، اندفع الجميع خارجين من البيت، وتجمّعوا تحت الشجرة. وقف السيد نغواتا مخاطباً الجمع بالنيابة عن الزعيم قائلاً:

نعرف أنّ هذا الرجل ترك وراءه ثروة؛ كنوز من ضمنها أبنائه. نودّ أن ننصح أشقائه برعاية هؤلاء الأطفال. احرصوا على أن ينهوا تعليمهم الإعدادي كما لو كان والدهم لا يزال حياً. أمّا بخصوص الممتلكات العينية، فلا نودّ أن يتبادر إلى سمعنا أيّ مشكلات بين أفراد العائلة بهذا الشأن. إذا كان هناك أحد يودّ مساعدة هذه العائلة، فليكن ذلك بمساعدة الأطفال والاعتناء بهم، بما في ذلك توفير الملابس لهم، إضافة إلى مصاريف الدراسة.

وقف شخص آخر لكي يتحدث. إنّه السيد جونيسي القادم من جنوب كاسونغو، الذي يرغب في التحدث نيابة عن عائلة جيفري.

قال ممسكاً قبعته: إنّها أوقات حزينة لعائلتنا أيضاً. إنّنا قلقون جداً الآن؛ فالمرحوم ترك وراءه زوجة هي أختنا العزيزة أيضاً، إلى جانب أطفالها الأربعة. لقد تركت أختنا العائلة، وقدّمت إلى هذه القرية منذ وقت طويل. لذا، نرجو من عشيرة كامكوامبا العناية بالأطفال، وإتمام المهمة التي بدأها والدهم العزيز. هذا كلّ ما لدينا.

بعدها، رفع والدي وأشقاؤهُ التابوت، ثمّ وضعوه داخل شاحنة صديقهم كاتشيلوي. وبعد أن قفزوا إلى داخل الشاحنة لتثبيت التابوت، سارت الشاحنة نزولاً في اتجاه المقبرة، في حين اتجه الناس إلى هناك مشياً على الأقدام.

تقع المقبرة عند نهاية الطريق، قرب قرية جدي، وهي مجرد مكان صغير يُطل عليه بستان من شجر اليوكالبتوس، وينمو فيه عشب طويل حول بعض الشواهد الحجرية. كانت شقيقتا والدي، فاني وإيديث مدفونتين هناك أيضاً.

عندما وصل الجميع، كان بعض الرجال الذين ينتقلون جزمات طويلة بالانتظار، وهم يُسمّون عادة بالإدزوكولو؛ إنهم حفّارو القبور الذين يستعان بهم؛ للقيام بأعمال الحفر والدفن. يُذكر أنّ القبور في مالواي ليست مجرد حفر مفتوحة بعمق ستة أقدام كما هو الحال في العالم الغربي، إنّما يحتوي كلّ قبر على حجيرة مخفية في قعره - تكون عادة مكاناً ضيقاً يُحفر في جنب الحفرة - يوضع داخلها التابوت. يشبه هذا الأمر حصول المتوفى على غرفة مخصوصة به بعد الموت. وتهدف هذه العملية إلى حماية المتوفى من التراب المتساقط عليه، أو بالأحرى، تجنب العائلة رؤية التراب، وهو يتساقط على التابوت. كان القبر الذي حفّره الإدزوكولو للعمّ جون يحتوي على حجيرة في وسط الحفرة، كأنّها حفرة داخل حفرة. أنزل الإدزوكولو التابوت بالحبال إلى الحجيرة بصعوبة. كان حجمها مناسباً للتابوت تماماً. ثمّ قفز أحد الحفارين بعدها، وغطّى الحجيرة بألواح خشبية غليظة وقُرش من قصب. بدا القبر فارغاً بعد هذه العملية.

لقد شاهدت ذلك كلّهُ يحدث أمام ناظريّ؛ كأنّني أرى كابوساً، وقد نالت منّي الحمّى؛ رأسي يؤلمني، وطنين غليظ لا يزال دماغني؛ كأنّ الشمس التي تضغط عليّ من أعلى أسمعني صوتها. عندما فرغ الإدزوكولو من ملء القبر بالتراب وتغطيته بالعشب، انضمت إلى جموع المعزّين بالصعود إلى أعلى التل. كانت تلك أكثر اللحظات وحدة في حياتي.

أصبحت الأوضاع أكثر صعوبة عقب وفاة العمّ جون؛ فعدا الحزن الذي لفّنا جميعنا، كان على والدي إدارة الأعمال وحده. كنّا في بداية موسم الزراعة، فاعتنى والدي بالمحاصيل حتى موعد الحصاد. ودفع أجر العمّال كافة، وانتهى من تسوية كامل الحسابات. بعدئذٍ،

عمل بنصيحة الزعماء، فسلم الأعمال جميعها لابن جون البكر جيريمايا، الذي كان في العشرين من العمر.

جرت العادة أن يرث الابن البكر كل شيء عن والده، لكن الأمور لا تجري على هذا المنوال دائماً؛ فيحدث أن يبرز أحد أشقائه للاستحواذ على المال كله، تاركاً عائلة المتوفى تحت رحمته. ويا للأسف! فإن ذلك يحدث دائماً؛ ما جعل أغلب التظلمات التي ينظر فيها زعماء القرى، هي من هذا القبيل.

عاش جيريمايا برفقة جيفري ووالدهما، وكان يساعد عادة في أعمال الزراعة. ولكن، كنا نعرف أنه لا يرغب في العمل الشاق. ولم يُبدِ اهتماماً بالدراسة على الرغم من ذكائه، وعادة ما كان يقضي وقته، وهو يشرب في الحانات. كان والدي يشعر بقلق بالغ حيال تسليمه مصالح العائلة، لكنه لم يشأ أن يدخل في مشاحنات مع الزعيم أو الأقارب.

قال والدي حينها: لا أريد أن ينعتني أحد بالسارق. سأفعل الصواب حتى لو كان ذلك يعني أن الأمور ستجري على نحو سيئ.

حقاً، فوجئ جيريمايا لدى معرفته أنه سيتسلم ثروة العائلة؛ فقد كان يعتقد أن أعمامه لا يتقنون به.

قال لوالدي: إنها نعمة رائعة. شكراً جزيلاً لك.

ولكن، ما إن سيطر جيريمايا على الوضع حتى أنفق دخل الموسم كله في حانات ليلونغوي وكاسونغو. وعندما حان وقت شراء البذور والسماذ في شهر تشرين الثاني؛ بغية زراعة الذرة والتبغ مرة أخرى، وتوظيف عدد آخر من العمال، لم يكن المال الذي بقي بحوزته كافياً لذلك؛ ما أدى إلى تراجع الإنتاج، وقلة محصول الموسم اللاحق. وبعد بيع التبغ في المزاد، أخذ جيريمايا المال، وتوارى عن الأنظار، ثم ظهر بعد أن أنفق معظمه.

كان العمّ جون يملك أيضاً طاحونتي ذرة في قريتين مجاورتين، وكان يأتيه من ريعهما مال وفير. أيضاً كان يملك ثمانية رؤوس من الماشية. وضع جيريمايا يده على الطاحونتين

والماشية أيضاً، إلا أنّ أكبر أعمامي، موسيوالي، أخذ منه - في العام اللاحق - إحدى الطاحونتين ونصف الأبقار عنوة، ليفقد جيريمايا طاحونته وأبقاره في العامين اللاحقين.

أمّا والدي فقد رأى أنّ ما صنعه شقيقه قد أصبح هباءً منثوراً. يمكن للشخص أن يخسر كلّ شيء بسرعة في قطاع الزراعة. وكما جرت العادة، فلا يحقّ لوالدي استرجاع ما كان قد منحه سابقاً؛ فما إن ترفع يدك عن إدارة المصالح، حتى تخسر إلى الأبد. وقد تركت عائلتنا لتعيش على عاتقها بعد انهيار كلّ شيء.

وبوجه عام، أصبحت الزراعة عملاً صعباً في مالوي بسبب سياسات رئيس البلاد الجديد. ففي عام 1994م؛ أي قبل ثلاثة أعوام من وفاة العمّ جون، تنحّى الرئيس باندا عن السلطة أخيراً بعد خسارة أول انتخابات سمح بإقامتها. كان الناس قد ملّوا الوضع بعد ثلاثين عاماً من حكمه. ثم إن المعارضة ضده استعرت؛ إذ تجمّعت حشود غفيرة في المدن للتظاهر ضد طغيانه وسياساته المتعنتة، وقد أفضى ذلك إلى وقوع أعمال شغب. يُذكر أنّ عصابات باندا قامت قبل الانتخابات بمحاولة تخويف الناس؛ لكي يصوّتوا له لولاية جديدة. ففي أحد الأيام، ظهر ما يزيد على ثلاث مئة غولي وامكولو في الشارع المحاذي للمركز التجاري حاملين توابيت فارغة، ووعدوا أن يملؤوها بمنّ لا يدعم الرئيس الأبدي.

لكنّ المعارضة فازت في نهاية المطاف، وخلافاً لما يفعله الخاسرون في إفريقية عادة، وافق باندا على ترك منصبه بهدوء من دون شنّ أيّ حرب، حتى إنّهُ أعلن هزيمته قبل الانتهاء من عددٍ كامل الأصوات. كان يعلم أنّ أوانه قد حان. وبسبب ولادته وترعرعه في كاسونجو، فقد عاد إلى بيته عند سفح جبل نفورويا ناوامبي - أو ما كان يُعرف سابقاً بصخرة الذباب الصالح للأكل، حيث هزم محاربو تشيوا العظماء خاصتنا جيش نجوني - وعاش بقية حياته هناك. وقد تولّى الرئاسة من بعده وزير ضخم سمين سابق يدعى باكليي مولوزي، جالباً معه مشكلات من نوع جديد.

صحيح أنّ باندا كان متسلطاً قاسياً، لكنّه كان يعتني كثيراً بالمزارعين والأراضي. ونُعدّ منطقتنا أكثر المناطق خصوبة في مالوي قاطبة، وكانت تُسمّى عادة (سلّة غذاء) البلد، وكان باندا يعرف ما يتطلّبه العمل في هذه الأرض. فكان يحرص على توفير السماد لكلّ

مُزارِع. وكانت البذور زهيدة الثمن، وذلك مَكَّن كل مُزارِع - إذا رغب - من زراعة التبغ في مالاوي، وبيعه بعدها. كان ذلك يعني أنّ أيّاً من العوائل في مالاوي لن تعاني الجوع ما دام المطر ينهمر غزيراً.

أمّا مولوزي رجل الأعمال الثري أصلاً قبل ولوجه معترك السياسة، فقد رأى أنّ الحكومة لا تملك مصلحة في التعامل بالسماذ والحبوب. لقد أراد أن يكون مختلفاً عن باندا بأيّ طريقة، وكان ذلك بإيقاف الدعم، وترك المزارعين يتدبرون أمورهم بأنفسهم. وسمحت السوق المفتوحة للشركات الغنية غمر المزايدات بكميات كبيرة من التبغ، وذلك أدى إلى تدني الأسعار، وسحق صغار المزارعين. وسرعان ما أصبحت قيمة تبغ البرلي الذي تنتجه متدنية جداً لدرجة جعلت كثيراً من المزارعين يعزفون عن زراعته. ومع ذلك، فقد تمكّنت عائلتي من زراعة عدد محدود من قطع الأرض الصغيرة، إضافة إلى حقول الذرة التي لم تتغيّر مساحتها.

في السنة اللاحقة لوفاة العمّ جون، فَقَدَ عمّي سقراط (الذي كان يعمل عامل لحام) وظيفته لدى سلطة كاسونغو لصناعة التبغ المعالج بالأفران بعد أن أغلقت العزبة أبوابها. وقد اضطر هو وعائلته إلى ترك مأواهم هناك والعودة إلى قريتنا، فسكنوا عريشة كبيرة قرب بيتنا.

كان للعمّ سقراط سبع بنات، وذلك أسعد شقيقاتي فقط؛ فقد ومهم لم يكن يعني لي كثيراً. ولكن، وفي أثناء نقل متاعهم من الشاحنة ذات الأطنان العشرة، رأيت شيئاً يقفز من على ظهرها، ثمّ شاهدت كلباً ضخماً يجثم عند قدمي.

ابتعد، صرخ سقراط راكلأ الهواء فوق رأس الكلب الذي عوى مرّة، ثمّ ولّى الأدبار. وبعد ابتعاده مسافة آمنة، جلس محدّقاً إليّ.

قال سقراط: هذا كلبنا كهامبا. قلت لنفسي: لمَ لا أجلبه؛ ليحرس الدجاج والماعز هنا. لقد كان يجيد ذلك في العزبة. ربّما يدكّر ذلك بالوطن. سنفتقد ذلك المكان ولا شك.

كان كهامبا من أكثر الكلاب التي رأيتها في حياتي غرابة؛ إذ كان لونه أبيض مع بقع سود كبيرة على جسمه ووجهه، كأنَّ شخصاً رشقه بدلو من الطلاء. كانت عيناه بنيتين، كان أنفه ملطخاً ببقع وردية فاقعة. لقد بدا غريباً، كشيء قادم من بلاد بعيدة. ثم إنه كان كبيراً وأطول من كلاب قريتنا، لكنّه كان هزياً كحالهم. يُذكر أنّ الكلاب في مالوي تستخدم لغرض الحراسة فقط. لذا، لم تكن تحظى بغذاء مماثل لما تناله الكلاب في العالم الغربي. تأكل الكلاب في مالوي الفئران ومخلفات الموائد إن وُجدت. لم أرَ كلباً سميناً طوال حياتي. جلس كهامبا يطالعني من هناك، وذيله الأبيض الطويل يثير بحركته الغبار من خلفه. وتدلى لسانه الطويل من على جانب فمه مسيلاً اللعاب. وما إن ولج سقراط داخلاً حتى جاء كهامبا، وامتطى ساقي.

ابتعد، صرخت عليه، مشوّحاً بيديّ، فهرول في اتجاه البيت.

اذهب، وطارد الدجاج أيها الحيوان الغبي.

تدلى لسانه مرّة أخرى، وسال لعابه على التراب.

عندما استيقظت صباح اليوم اللاحق، تعثّرت بشيء في أثناء توجّهي إلى الحمام. كان كهامبا مستلقياً عند عتبة باب غرفتي، ينتظر رافعاً أذنيه.

قلت: أخبرتك بأن تتركني وشأني، ثمّ أدركت ما كنت أقوم به. لم أكن لأدع أحداً يراني أتحدث إلى الحيوانات، وإلاّ ظنني الجميع مجنوناً.

وفي أثناء عودتي من الحمام، صادفت سقراط يخرج من بيتنا برفقة والدي. ابتسم، ثمّ أشار إلى الكلب الذي أصبح يلازمني كظليّ.

قال: أرى أنّك وجدت صديقاً. لقد منّ الربّ عليّ بسبعة أطفال كلهم من البنات. أعتقد أنّ كهامبا سعيد؛ لأنّه وجد صديقاً له أخيراً.

قلت: أنا لا أصادق كلاباً.

ضحك سقراط، قائلاً: أقنعه هو بذلك.

أقلعت بعد مدّة عن محاولات التخلّص من كهامبا؛ فلم تكن تلك ذات جدوى. ولأكون صادقاً؛ فلم يكن الأمر بذلك السوء، فأنا لم أمتلك كلباً من قبل، وكان من الجميل أن أحظى برفقة. وبخاصة من تلك الفئة التي لا تتحدث أو تصدر الأوامر. كان كهامبا ينام خارج باب غرفتي كل ليلة، وحين كانت تمطر، كان ينسل إلى مطبخ والدتي، ويكّوم نفسه في الزاوية. وتولّى عمله في حراسة الدجاج والماعز دون طلب من أحد، وحماها من هجمات الضباع النادرة، وقطعان الكلاب المتشرّدة التي تجوب المنطقة؛ بحثاً عن الطعام. وكان يطارد الماعز في المكان، ما يجعلها تنغو، وتزعق، وتثير الغبار. وكان كلّما فعل ذلك، خرجت والدتي من المطبخ، وقذفته بجذائها.

كانت تصرخ: أبعدوا هذا الكلب عن هنا.

كان الأمر برمته ضرباً من اللعب بالنسبة إلى كهامبا. وكثيراً ما كان يعذّب الدجاج والدجاج الحبشي أيضاً، وكان يبدو مستمتعاً، حين ترفرف الدجاجات الكبيرة بأجنحتها نحوه، مهسهسة وحافرة الأرض بمخالبها.

أحب كهامبا الصيد أكثر من أيّ شيء آخر. آنذاك، حلّ موسم الذهاب إلى الصيد في الحقول والدامبو محلّ كثير من الألعاب التي كنت أمارسها في البيت. فبدأت أذهب برفقة أبناء عمّي ممّن هم أكبر سنّاً، مثل جيفري وتشاريتي الذي كان يسكن على مقربة منّا هو الآخر.

كنّا نصطاد الطيور عادة؛ إذ نختبئ بين الأعشاب الطويلة قرب الدامبو، التي تكون طويلة جداً في موسم الجفاف، لدرجة أنّه يمكنها ابتلاع رجل كامل. كنّا ننتظر حتى الظهيرة، عندما يحين موعد قدوم الطيور لشرب الماء، ثمّ نضع بعض العصي المدهونة بطعم يُدعى أوليمبو، وهو عصارة لزجة تعمل عمل الغراء. وحين يدوس الطير على إحدى العصي، يعلق ويبدأ بخفق جناحيه، مُصدراً ضجة كبيرة. وقبل أن يتمكّن من تحرير نفسه، كنّا نقفز من بين الأعشاب حاملين سكاكيننا، صارخين: تونغالا! لقد اصطدته!

تامانغالا! أحضره بسرعة؛ حتى لا يخيف البقية.

سأقطع عنقه!

لا، أريد نزع رأسه!

كنا نختلف على مَنْ سيقتل الفريسة، ونتاجوب عادة على نزع رؤوس الطيور، أو نمسكها بين أصابعنا، ونزعاها مثل حبة الطماطم. وبعد أن نزيل الأحشاء والريش، كنا نخزنها داخل أكياس سكر تتدلى من رقابنا. وما إن نعود إلى البيت حتى نشعل ناراً، ثم نشوي الطيور على الجمر المتوهج. ولحسن الطالع، لم يكن الأهل يجبرونني أنا وجيفري على مشاطرة الصيد مع الآخرين. كنا نعود في بعض ليالي الصيف بثمانية طيور، ونتناول وجبة دسمة.

لم تملك عائلتي يوماً المال الوفير، وكان صيد الطيور هو الوسيلة الوحيدة لتناول اللحم عادة؛ وذلك يُعدّ نوعاً من الرفاهية. وتحفل لغة تشيتشيوا بكثير من الكلمات والمصطلحات بهذا الشأن، حتى إنَّ فيها كلمة «نكهولي»، التي تعني «نهماً شديداً للحم».

لم يكن سهلاً إسكات ذلك النوع من الجوع، في حين كانت تلك المهام غادرة في بعض الأحيان؛ فعلى سبيل المثال، فإنَّ أفضل عصارة أوليمبو لصيد الطيور تستخرج من أشجار نكهازي التي تنمو بأفرع غليظة جداً مغطاة بالشوك. وكان على المرء حشر نفسه داخل الشجرة، وقطع الجذع بالسكينة، والحذر من دخول العصارة في عينيه؛ لأنَّ ذلك يعني الإصابة بالعمى.

في ظهيرة أحد الأيام، ذهبت أنا وجيفري وتشاريتي لجمع الأوليمبو، فوقع نظرنا على شجرة نكهازي مثالية للعملية.

قال تشاريتي: أنا سأذهب. كان فتى يميل إلى إحداث الضجة؛ كونه يودُّ أن يكون القائد. لذا، فقد تركناه يذهب.

صعد تشاريتي شجرة نكهازي مستلاً سكينته، ومتوخيماً الحذر من الأشواك الحادة المحيطة. تناول وشقَّ الجذع، ثمَّ أمسك كيس السكر لجمع العصارة المنسكبة. ولكن، في أثناء ذلك، هبَّت ريح قوية هزَّت الشجرة كلها، ما أدى إلى تطاير الأوليمبو إلى عينيه. اندفع تشاريتي من الدغل صارخاً: لقد عميت، لقد عميت! ساعدوني! إنه مؤلم!

سألت جيفري: ماذا نفع!

كان هناك رجل عمل مرّة لدى العمّ جون يُدعى ماكسويل. وقد علّمنا أشياء عن شجرة نكهازي، وعمّا ينبغي فعله إذا دخلت العصارّة عين أحد ما.

التفت إليّ جيفري، قائلاً: أتذكّر ما أخبرنا به ماكسويل؟

قلت: نعم، ماذا؟

قال: العلاج الوحيد هو حليب الأم.

قلت: حسناً، من أين نحضره؟

قال: من بيتكم.

كان محقّقاً؛ فوالدتي كانت قد أنجبت حديثاً شقيقتي مايلس. ربّما تستطيع مساعدتنا. اقتدنا تشاريتي من قميصه في اتجاه بيتي. وعندما وصلنا هناك، أخبر جيفري والدتي بالأمر، ووافقت على مساعدتنا. طلبت من تشاريتي الجلوس على ركبتيه وفتح عينيه. أخرجت ثديها، واقتربت من وجهه، ثمّ قالت: اثبت، ثمّ عصرت بعض الحليب في عينيه.

كان موقفاً مضحكاً. ثمّ صرخ جيفري: هيا يا رجل، لا تبتلع أيّاً منه.

أضفت ممسكاً أضلاعي من شدّة الضحك: هذا جزاؤك لإرضاء نكهولي.

لم أسأل تشاريتي عن شعوره حيال ما حدث، لكنني أعتقد أنّ الأمر لم يكن ذا أهمية. وبعد دقائق معدودات، تمكّن من فتح عينيه ورؤية ما حوله. كان هناك إجماع بيننا على أنّ ماكسويل لا بُدّ أن يكون ساحراً ليعرف سرّاً مثل هذا. وفي هذه الأثناء، استدارت والدتي نحو تشاريتي، قائلة: سأحصل على الطيور التي تصطادها كلها المرّة القادمة لقاء خدماتي.

وافق تشاريتي، وأحضر في اليوم اللاحق كيس سكر يحوي أربعة طيور، ثمّ وضعه في المطبخ.

لقد علّمني الصيد مع ابني عمّي طرائق التعامل مع الأرض: كيفية إيجاد المكان المناسب بين العشب الطويل عند برك الدامبو المتلاصق، وكيفية خداع الطيور بشرك قوي خادع، والتحلّي بالصبر والهدوء في أثناء انتظار الفريسة. يعرف كلّ صياد ماهر أنّ الصبر عامل رئيس في الصيد، وكان كهامبا يعي ذلك جيداً، كأنّه مارس الصيد طوال حياته.

بدأت طلعاتنا مع قدوم موسم المطر، حينما كانت السماء تمطر بغزارة في الصباح، ليتحوّل الجو وقت الظهيرة، فيصبح حارّاً والهواء شاحباً. لا تجذب الدامبو كثيراً من الطيور، عندما تكون الأرض رطبة ومليئة بالحفر الطينية. وحينئذٍ، نعتمد - نحن معشر الصيادين - على التشيكهوابو؛ وهو سوط كبير فتّاك، يشبه شركاً على شكل مقلاع. ولكن، من دون ذخيرة.

وبعد أن توقّف المطر ذات صباح، انطلقت أنا وكهامبا لنصب الشراك. حملت على طرف معولي كيساً مصنوعاً من شالٍ طويل يُسمّى مبانغو، قماشه ذو ألوان زاهية، وتستخدم النسوة هذا الكيس لرفع كلّ شيء، بدءاً بشعورهنّ وانتهاءً بأطفالهنّ على ظهورهنّ. كان الكيس يحتوي على إطار درّاجة هوائية داخلي طويل، ومبرق درّاجة هوائية مكسور، وسلك معدني قصصته من حبل غسيل والدتي، وحفنة من تبين الذرة الذي يُسمّى غاغا، وأربع قطع طوب ثقيلة. وكما هو الحال، فقد حملت سكينتين للصيد كنت قد صنعتها بنفسني.

كانت الأولى سكيّنة صاعقة على غرار تلك التي يستخدمها رامبو، وكنت قد صنعتها من ألواح حديد غليظة. بدايةً، خطّطت شكلاً مخيفاً على الحديد بقلم رصاص، ثمّ استخدمت مسماراً ومفتاح ربط كبيراً؛ لعمل ثقوب على طول الخطوط، بحيث يتزحزح من مكانه عند ضربه بصورة قوية، ثمّ وضعت القطعة الحديدية على صخرة مستوية لتنعيم الحافات وجعلها حادّة. أمّا المقبض، فكنت ألفّ السكيّنة من أسفل بأكياس الجامبو للحصول على قبضة كافية ومستوية، ثمّ أذيتها في النار.

كانت السكينة الأخرى تشبه أداة للطعن، مصنوعة من مسمار ضخم جعلته مسطحاً بالدق عليه عن طريق مفتاح الربط وتحديد طرفه، ثم عملت مقبضها على غرار مقبض السكينة الأولى نفسها. بعد ذلك، وضعت كلتا السكينتين برباط خصر معلق بينطالي.

وحين فرغت من ذلك، حزمت معداتي، ثم انطلقت يرافقتني كهامبا نزولاً في الطريق المؤدي إلى المقبرة، الواقع خلف بيت جيفري، حيث أشجار اليوكالبتوس عالية، وتمنح ظلاً كافياً. انتصبت تلال مرتفعات دوا - التي تفصلنا عن البحيرة - أمامي على نحو جميل،



منظر لمرتفعات دوا، كما تظهر من بيتي. يقع الجبل خلف صفوف الذرة وغابة اليوكالبتوس مباشرة. كنت أذهب أنا وكهامبا للصيد هناك.

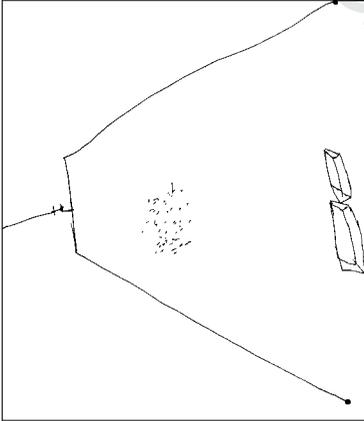
يلقها ركام رمادي يقطر. كانت هناك عاصفة جديدة توشك أن تهب. لذا، كان علينا العمل بسرعة.

وجدت مكاناً مناسباً عند الطريق الرئيس، بجانب شجرة يوكالبتوس طويلة من شأنها توفير ظلٍ مديد حال ميلان الشمس عبر السديم. استخدمت معولي؛ لإزالة العشب والأوراق حتى تكشف الطين الأحمر (سطح يبلغ قطره نحو أربع أقدام)، ثم نشرت بسكينتي غصنين غليظين من شجرة اليوكالبتوس، وأزلت لحاءهما، ثم بريتهما حتى استدق طرفهما. بعد

ذلك، وضعت العمودين في التربة الرطبة، بحيث تفصل بينهما مسافة قدمين، ثمَّ سحبتهما لاختبار مدى ثباتهما. لقد كانا ثابتين بصورة جيدة.

أمَّا إطار الدراجة الداخلي فقد قطعته إلى شريطين رفيعين، وثبَّت عليهما السلك المعدني، ثمَّ ربطت الشريطين المطاطيين إلى العمودين. وحال فراغي منها، أصبحت تشبه مقلاعاً ذا مركز حديدي غليظ. لقد كانت تلك أداة فاعلة للقتل.

بعد ذلك، جمعت بعض اللحاء من أشجار قريبة، ثمَّ ربطت بعضه ببعض لأصنع حبلاً طوله خمس عشرة قدماً تقريباً، ثمَّ قطعت جزءاً منه يبلغ طوله نحو ثمانين قدماً، وثبَّته بالأداة المعدنية. بعدئذٍ، ربطت طرفها الآخر بعضاً جاعلاً العقدة كبيرة ومدوّرة، ثمَّ أمسكت العصا كالمقبض، وشدّدت الأشرطة المطاطية نحو الخلف إلى أقصى حدّ. بعد ذلك، حشرت المقبض بين عمودين - عصا أخرى ومبرق الدراجة - وثبَّته باستخدام العقدة الثخينة المدوّرة.



كانت تستعمل مصيدة الشخابو لقتل الطيور في فصل الشتاء حيث كانت تكسر بين قطعتي الطوب، فتموت، ثم أقوم بأكلها.

امتد الحبل الطويل إلى ما بين الأشجار ليستخدم زناداً. وما إن أُعدَّ حتى وضعت قطع الطوب الأربع على بُعد إنشآت عدّة أمام الشَّرك، ثمَّ رششت تبين الذرة في المنتصف. كانت تلك منطقة القتل. فحين تحط الطيور لأكل التبن، أسحب الحبل مُطلقاً المقلاع الذي يضرب الطيور بحائط الطوب.

قلت: فلنبدأ الصيد، ثمَّ تبعني كهامبا بين الأشجار.

اختبأنا خلف شجرة ثومبوزي صغيرة على نحو

أتاح لي رؤية كلِّ شيء من دون أن يلحظني أحد. وحالما قبعت هناك، جلس كهامبا إلى جانبي، وأخذ ينظر إلى الأمام باهتمام من دون أن يتحرَّك أو ينبج. وبعد نحو نصف ساعة، حضر سرب صغير مكوّن من أربعة طيور، ورأى الطعم. حطَّت الطيور على الأرض، وبدأت تنقر التراب. حينئذٍ، بدأ قلبي يخفق، وانتصبت أذنا كهامبا، وأخذ فمه يرتعش. كنت على

وشك إفلات الحبل عندما لمحت طائراً خامساً يوشك أن يحط عند أقرانه. كان ضخماً، ذا صدر رمادي كبير وريش أصفر.

قلت لنفسني: هيا، إلى اليمين قليلاً، أحسنت، هيا.

وبعد ثوانٍ قليلة ثقيلة، انضم الطائر السمين إلى المجموعة وبدأ بالأكل. وما إن أصبح الجميع في منطقة القتل حتى أفلتُ الحبل.

وو - بوب. ثم اختفت الطيور في غيمة من الريش والتبن.

صرخت: تونغالا، واندفعت أنا وكهامبا من مخبئتنا.

ارتمت أربعة طيور عند الطوب، في حين تمكّن الخامس من الفرار. كان الطير الكبير لا يزال يرفرف في الطين، فتناولته قبل أن يهرب. كان جسده دافئاً وناعماً على يدي. كان بمقدوري الإحساس بقلبه الصغير يخفق على راحة يدي. أمسكت رأسه بين إصبعي، ثم لويت عنقه. بعد ذلك، تناولت الآخرين، ثم نفضت الطين عنهم. وقد اعتدت أن أحضر كيس سكر لأضع الطيور فيه، لكنني نسيت هذه المرة؛ فدستت الطيور العاجزة في جيوبي.

وحالما أعدت نصب الشُّرك، انتظرت نصف ساعة أخرى، لكنني استسلمت في النهاية.

قلت: حان الآن وقت الأكل، ثم انطلقت أنا وكهامبا صوب مبهاالا.

تعني كلمة مبهاالا (بيت العزاب)، وهو مكان سكنه ابن عمي تشاريتي. كان أشبه بالمنتدى، وهو يقع ضمن ملكيتنا مقابل بيت جيفري. وقد سكنه مدّة من الزمن جيمس؛ العامل الذي تشاجر مع بهيري. ولكن، بعد تسريحه، بقي المكان خالياً. احتل تشاريتي المكان برفقة صديقه ميزيك، وهو شاب ضخم سمين، ترك المدرسة ليعمل في التجارة. وعلى الرغم من أنّ كلاً منهما كان يسكن مع عائلته (كان بيت تشاريتي يقع قرب بيت غيلبرت في بستان اليوكاليبتوس)، إلا أنّهما كانا ينامان ليلاً في المنتدى. فقد أعدّ أحدهما في الزاوية سريراً من أعمدة شجر اليوكاليبتوس وأكياس الذرة المحشوة بالعشب. وكانت الملابس المتسخة مبعثرة في الأنحاء كلها، إلى جانب قشور المانجو، وقشور الجوز، ونفايات أخرى غريبة. وعُلقت على أحد الجدران صورة كبيرة للاعبين فريق نادي إم تي إل وندوروز لكرة

القدم - يُعرّفون أيضاً باسم البدو - ، وهو فريقى المفضّل فى الدورى المالاوى، وربّما فى العالم أجمع. وقد زيّت الجدارَ المقابل صورةً أخرى، يظهر فيها غريمهم اللدود فريق بيح بوليتس الذى لا يمكن أن أصف مدى كراهيتى له.

كان هنالك موقد تدفئة فى الزاوية، وهو فى حقيقة الأمر مجرد إناء ضخّم ضحل مثقوبة جوانبه من أجل التهوية، ويحوى لبّ ذرة متفحمة وخشّباً. كانت هنالك أيضاً نافذة صغيرة لتصريف الدخان، لكنّها لم تكن ذات نفع كبير. وكانت مدخل الضوء الوحيد للغرفة، الذى كان مجرد شعاع هزيل من ضوء الشمس تلوّثه ذرات الغبار المتطايرة. وعلى الرغم من أنّ هواء الغرفة كان نتناً مثل قدمين قذرتين؛ فإنّها كانت تمثّل أفضل مكان فى العالم فى نظرى.

كنت أُمنع من دخول المنتدى؛ لأنّنى صغير ومزعج، إلا فى حال قدّمت شيئاً يشفع لى بالدخول. وقد سُمح لى بالدخول بضع مرّات بعد أن ساعدت فى سرقة ثمر المانجو. كان تشاريتى يجعلنى أضع كيس مبانفو حول عنقى وأتسلّل إلى مجمع الجيران، ثمّ أتسلّق الشجرة بهدوء، مستخدماً سكينتى وأسنانى فى قطع ثمار المانجو عن الشجرة، ثمّ أضعها فى الكيس، وأقدّمها إلى المبهالا؛ لىسمحوا لى بالدخول. كان الأمر شبيهاً بدفع رسوم الدخول.

كانت المحادثات فى الداخل مثيرة ورابكة - فى أغلب الأحيان - لعقل طفل فى سنّ الحادية عشرة. وكان معظم الحديث يدور عن الفتيات، وكنت محظوظاً إذا غفلوا عن وجودى معهم. فى إحدى المرّات، توقّف ميزيك فى أثناء حديثه عن إحدى الفتيات التى شاهدها فى البلدة، ثمّ قال لتشاريتى: يتعيّن علينا الحذر؛ فهنالك طفل يجلس معنا. هذا الفتى لا يمكنه تحمّل هذا النوع من القصص.

بدأت أتوسّل: أنا لست طفلاً. بالله عليكم يا جماعة، أكملوا الحديث. أنا رجل ناضج. أعرف بعض الأمور عن الفتيات.

قال أحدهم: حقّاً، وماذا تعرف؟

قلت: أعرف... أعرف ما تعرفونه أنتم.

بينما كنت عائداً من الصيد برفقة كهامبا، كنت على ثقة بأن غنيمتي كافية لمنحي الإذن بالدخول. اقتربت من المكان، وسمعت صوت تشاريتي وميزيك من الداخل، ثم قرعت الباب، ففتح لي تشاريتي، قائلاً: ماذا تريد؟

قلت: يا شباب، لقد حصلت على أربعة طيور للتوا! إنها هنا في جيوبي. هل يمكنني الدخول؟

ظهر ميزيك قرب الباب، قائلاً: ماذا لديك هنا؟

قلت: أربعة طيور.

قال متبسماً: هذا هو نوع الرجال الذين نحتاج إليهم في المبهالا. لقد أحسنت صنعاً.

قال تشاريتي: سنشعل ناراً.

دخلت فرحاً، ثم تبعني كهامبا، وحينئذٍ، صرخ ميزيك: أخرج هذا الكلب الغبي من هنا. سيظن أنه يسكن هنا أو ما شابه. مكان الكلاب ليس في الداخل، ألا تعرف ذلك؟ أراهن أنك تتحدث إليه حتى...

صرخت: كهامبا، اخرج، ورفضت ساقبي إلى الخلف، ثم ركضت خارجاً، وهو ينظر إليّ بحيرة.

همست له قائلاً: انتظر.

بدأت أنظف الطيور بنزع الريش عنها، وهزّ أصابعي لينزل في دلو، ثم نزعنا الرؤوس وأخرجنا الأحشاء. وحين فتحت الباب، كان كهامبا في الانتظار. كانت تلك مكافأته لمساعدتي على الصيد، وكانت بالنسبة إليه أثمن من الحياة نفسها. ثم أخذت أقذف الرؤوس في الهواء واحداً تلو الآخر، فقفز كهامبا وتلقفها. لقد تمكّن من أكلها بقضمة واحدة. وابتلع الأحشاء بلقمة سريعة.

أمّا في الداخل، فكان تشاريتي وميزيك قد وضعوا لحم الطيور على الفحم، وكانت رائحة اللحم الساخن شهية جداً.

قلت: يا شباب، لقد سال لعابي.

قالا: اهدأ.

وحين انتهى من شواء طيوري، سمحوا لي بتناول أحدها. ولكن، ما إن أصبحت عديم النفع بالنسبة إليهما، حتى حدث ما كان محتوماً؛ إذ

قال ميزيك: اسمع، والدتك تناديك يا فتى.

قلت: ماذا؟ أنا لا أسمع شيئاً.

قال تشاريتي: إنه محق. إنها حتماً والدتك.

كانت أوامر المغادرة قد صدرت.. ودونما احتجاج، وضعت سكينتي في رباط خصري، ثم ناديت كربي، وعدنا معاً إلى بيت يعج بالفتيات.

